رويّ الألف

ضحك كالبكاء

قال عند وروده إلى الكوفة يصف منازل في طريقه ويهجو كافوراً في شهر ربيع الأول سنة إحدى وخمسين وثلاث مئة (٩٦٢ م):

[المتقارب]

أَلا كُلُّ مَاشِيَةِ الْخَيْزَلَى
فِدَى كُلّ مَاشِيَةِ الْهَيْذَبَى (١)
وَكُلُّ نَجَاةٍ بُجَاوِيَّةٍ
خَنُوفٍ وَمَا بِيَ حُسْنُ الْمِشَى (٢)
وَلٰكِنَّهُنَّ حِبَالُ الْحَيَاةِ
وَكَيْدُ الْعُدَاةِ وَمَيْطُ الْأَذَى (٣)

---

(١) الخيزلى: مشية للنساء فيها استرخاء وتثاقل وتفكك. الهيذبى: ضرب من مشي الخيل فيه جِدّ وسرعة. يبدأ الشاعر قصيدته بذكر اهتمامه من وجوده في الحياة؛ فهو لا يهتمّ بالنساء بكلّ ما يمثلنه في حياة الرجال، فمشي الجمال من النساء وما فيه من غنج ودلال وتثاقل وتفكك لا يثير اهتمامه، وإنما يلفت انتباهه شدّة جري الخيول وقوة عدوها، وهي شريكة الأبطال وميدانها المفضّل ساحات القتال. وللشاعر توق لإبراز بطولته وتفوّقه في عالم الفروسية.

(٢) النجاة: الناقة السريعة تنجو براكبها في حال تعرّضه للخطر. البُجاوية: النياق المنسوبة إلى بجاوة إلى قرى النوبة، تشتهر بشدّة سرعتها. الخنوف من الإبل: اللينة في السير والمشى: طريقة المشي. يرى الشاعر أن ما يُعجبه في تلك النياق سرعتها لما تقدّمه له من منافع، إذاً هو لا يهتم بها لذاتها بل بعملها، فمن يؤدّي عملاً مفيداً في هذه الحياة يستحقّ التقدير، وعليه فإن النسوة ليس لهن قيمة في نظر المتنبي إذا ما تمايلن ومسن في مشيهن.

(٣) العداة: الأعداء، ميط الأذى: إبعاده. يوضح الشاعر السبب الحقيقي بأن حبّه للإبل إنما مصدره فوائدها للإنسان، فهي رزق وتسبب الرزق، وتساعد المرء على الانتقال =

ضَـرَبْـتُ بِـهَـا الـتِّـيـه ضَـرْبَ الْـقِـمَـا
رِ إِمَّـــا لِـــهٰـــذَا وَإِمَّـــا لِـــذَا[١]
إِذَا فَـزِعَـتْ قَـدَّمَـتْـهَـا الْـجِـيَـادُ
وَبِـيـضُ الـسُّـيُـوفِ وَسُـمْـرُ الْـقَـنَـا[٢]
فَـمَـرَّتْ بِـنَـخْـلٍ وَفِـي رَكْـبِـهَـا
عَـنِ الْـعَـالَـمِـيـنَ وَعَـنْـهُ غِـنَـى[٣]
وَأَمْـسَـتْ تُـخَـيِّـرُنَـا بِـالـنِّـقَـا
بِ وَادِي الـمِـيَـاهِ وَوَادِي الْـقُـرَى[٤]
وَقُـلْـنَـا لَـهَـا أَيْـنَ أَرْضُ الْـعِـرَاقِ
فَـقَـالَـتْ وَنَـحْـنُ بِـتُـرْبَـانَ هَـا[٥]
وَهَـبَّـتْ بِـجِـسْـمِـي هُـبُـوبَ الـدَّبُـو
رِ مُـسْـتَـقْـبِـلَاتٍ مَـهَـبَّ الـصَّـبَـا[٦]

= في مجاهل الصحراء، وتعينه على التخلّص من مطبّات الحياة، وبها يدفع الأذى عنه، ويردّ كيد عدوّه إلى نحره.

(١) التيه: المفازة، يذكر الشاعر مغامرته حين هرب من مصر فارًّا من كافور وكان لا بدّ له من وسيلة سريعة، ومن هنا كانت الناقة سبيل نجاة، فإذا به يعبر الصحراء رغم خطورتها، إنه يغامر بحياته، قد ينجو وقد لا ينجو كأنه يقامر بشيء عزيز عليه، فكان لا بدّ من المغامرة.

(٢) والحنكة الحربية تقتضي أخذ الحيطة من المفاجآت للحفاظ على الناقة وراكبها من غدر كافور أن تتقدمها الخيول السريعة المستريحة للقتال بالسيوف والرماح.

(٣) نخل: ماء معروف. واعتزازاً بقوته، فقد استطاع المتنبي المرور بنخل، ولم يعرّج عليه للتزوّد بالماء لاعتياده على الظمأ ولقلّة حاجته لمساعدة العالمين، إنه كفيل بالدفاع عن نفسه.

(٤) النقاب: موضع يتفرّع منه طريقان، أحدهما يؤدّي إلى وادي المياه، والآخر يوصل إلى وادي القرى، يرسم المتنبي رحلة الخلاص من كيد كافور. وصل الركب إلى النقاب، ذلك الموضع الذي يُؤذن باختيار سلوك أحد طريقين، فإذا بالناقة تتمهل سائقها لاختيار الطريق التي يرغب في سلوكها.

(٥) و (٦) تربان: موضع يبعد عن المدينة نحو خمسة فراسخ. ها: حرف تنبيه. ثمَّة حوار =

رَوامِـي الْـكِـفَـافِ وَكِـبْـدِ الْـوِهَـادِ
وَجَـارِ الْـبُـوَيْـرَةِ وَادِي الْـغَـضَـى[١]
وَجَـابَـتْ بُـسَـيْـطَـةَ جَـوْبَ الـرِّدَا
ءِ بَـيْـنَ الـنَّـعَـامِ وَبَـيْـنَ الْـمَـهَـا[٢]
إِلَـى عُـقْـدَةِ الـجَـوْفِ حَـتَّـى شَـفَـتْ
بِـمَـاءِ الـجَـرَاوِيِّ بَـعْـضَ الـصَّـدَى[٣]
وَلَاحَ لَـهَـا صَـوَرٌ وَالـصَّـبَـاحَ
وَلَاحَ الـشَّـغُـورُ لَـهَـا وَالـضُّـحَـى[٤]
وَمَـسَّـى الـجُـمَـيْـعِـيَّ دِئْـدَاؤُهَـا
وَغَـادَى الْأَضَـارِعَ ثُـمَّ الـدَّنَـا[٥]

= جرى بين الشاعر وناقته، ولمعرفتها الجيّدة في الدروب أشارت إلى حيث أراد، فهو يودّ الوصول إلى بلاد العراق، فإذا بها تشير إليها، ثم راحت تسابق الريح بما تحوي من نشاط وحيوية مارة بحمى ذلك الموضع في البادية متجهة إلى الشرق مخلّفة وراءها ريح الدبور الغربي ومستقبلة الصبا، الهواء المنعش الذي يغطي الشرق بنسماته الرقيقة.

(١) روامي: قاصدة، تتوالى أسماء الأمكنة التي قطعتها ناقة الشاعر، بدءاً بالكفاف فكبد الوهاد، ثم جار البويرة وأخيراً وادي الغضا.

(٢) جابت: قطعت وخرقت. بُسَيْطة: موضع بين الكوفة ومكة من أرض نجد، المها، الواحدة مهاة: الأبقار الوحشية. ما زالت النياق تتابع سيرها في تلك القفار والصحاري الموحشة تلافياً لمفاجآت الأخطار، إنَّها تسير وسط النعام والمها، في أرض قفراء لا أنيس فيها من البشر، فكان عليها أن تتآلف مع ما تراه من حيوانات.

(٣) و (٤) عقد الجوْف: موضع. الجراوي: منهل ماء عذب. الصدى: العطش. الركب يتابع السير مسرعاً كالبرق، ها هو قد أدرك عقدة الجوف، وعرَّج على الجراوي يروي ظمأه من ماء عذب زلال في صَوَر كذلك المنهل الآخر وتتدافع الأمكنة وصورها مسرعة أمام أعين المسرعين مروراً بالشغور ذلك الموضع في العراق، مع انبلاج الفجر وشمس الضحى.

(٥) الجميعي والأضارع والدّنا: مواضع. الدئداء: السير السريع أرفع من الخبب. إنه المساء يستقبل الركب المسرع الذي لم يعرف طعم الراحة، وتتسارع صور الجميعي والأضارع والدّنا، ولا يزال أمام الخوف مساحات.

فَـيَـا لَـكَ لَـيْـلاً عَـلَـى أَعْـكُـشٍ
أَحَـمَّ الْـبِـلَادِ خَـفِـيَّ الـصُّـوَى[١]
وَرَدْنَـا الـرُّهَـيْـمَـةَ فِـي جَـوْزِهِ
وَبَـاقِـيـهِ أَكْـثَـرُ مِـمَّـا مَـضَـى[٢]
فَـلَـمَّـا أَنَـخْـنَـا رَكَـزْنَـا الـرِّمَـا
حَ فَـوْقَ مَـكَـارِمِـنَـا وَالْـعُـلَا[٣]
وَبِـتْـنَـا نُـقَـبِّـلُ أَسْـيَـافَـنَـا
وَنَـمْـسَـحُـهَـا مِـنْ دِمَـاءِ الْـعِـدَا[٤]
لِـتَـعْـلَـمَ مِـصْـرُ وَمَـنْ بِـالْـعِـرَاقِ
وَمَـنْ بِـالْـعَـوَاصِـمِ أَنِّـي الْـفَـتَـى[٥]
وَأَنِّـي وَفَـيْـتُ وَأَنِّـي أَبَـيْـتُ
وَأَنِّـي عَـتَـوْتُ عَـلَـى مَـنْ عَـتَـا[٦]

(١) أعكش: موضع قرب الكوفة. الأحم: الحالك السواد. الصُّوى، واحدها صوة: أحجار توضع علامات لمعرفة الطرق. الطريق طويل، والخوف لا يزال في النفوس، وإن خفّت حدّته، وممّا يزيد بإحساس الخوف أن الليل ظلمة عمياء اختفاء معالم الطريق.

(٢) الرهيمة: موضع قرب الكوفة. الجوز: وسط الشيء، لم تنته رحلة الخوف، إنه على مشارف الوطن، لقد أصبحت الكوفة في متناول اليد وطلائع الليل تتسرّب إلى جوف الكون، ولا زال الليل في أوله، وما بقي منه أكثر ممَّا مضى.

(٣) و (٤) لقد آن للركب أن يستريح في كنف أرض الميلاد، ترجّل المتعبون طلباً للراحة، وتركوا النياق تأخذ قسطها من الراحة كذلك، وراح القوم يركزون رماحهم ويمسحون سيوفهم من دماء الأعداء ويُقبلونها؛ فهي العشير الصادق الأمين والرفيق الصالح في رحلة العذاب.

(٥) و (٦) يُعلن الشاعر تحدّيه واعتزازه، ويملأ قلبه اعتزاز بانتصاره، إنه الفتى الذي أمكنه الخلاص من مصر وما تمثله من ظلم عاناه من ملكها، والعواصم ومن فيها من ملوك لم يقدروا كفاءة الشاعر وقوّته؛ فقد استطاع أن يفي بأنه سيفلت من قبضة كافور، وسيخدعه ويسخر منه، بل إنه علا عليه ورد له الصاع صاعين، فرفع عنه الظلم وردّه على من كان يسبب ألمه.

وَمَـــا كُـــلُّ مَـــنْ قَـــالَ قَـــوْلاً وَفَـــى
وَلَا كُـلُّ مَـنْ سِـيـمَ خَـسْـفـاً أبَـى (١)
وَمَـنْ يَـكُ قَـلْـبٌ كَـقَـلْـبِـي لَـهُ
يَـشُـقُّ إِلَـى الْـعِـزِّ قَـلْـبَ الـتَّـوَى (٢)
وَلَا بُـدَّ لِـلْـقَـلْـبِ مِـنْ آلَـةٍ
وَرَأْيٍ يُـصَـدِّعُ صُـمَّ الـصَّـفَـا (٣)
وَكُـلُّ طَـرِيـقٍ أَتَـاهُ الْـفَـتَـى
عَـلَـى قَـدَرِ الـرِّجْـلِ فِـيـهِ الْـخُـطَـا (٤)
وَنَـامَ الْـخُـوَيْـدِمُ عَـنْ لَـيْـلِـنَـا
وَقَـدْ نَـامَ قَـبْـلُ عَـمَّـى لا كَـرَى (٥)
وَكَـانَ عَـلَـى قُـرْبِـنَـا بَـيْـنَـنَـا
مَـهَـامِـهُ مِـنْ جَـهْـلِـهِ وَالْـعَـمَـى (٦)

---

(١) ومن مدعاة فخره أنه صادق الوعد، يلتزم بقوله ولا يحيد عنه؛ إنه يمتاز عن غيره ممن يعدون ولا يفون، وفي ذلك تعريض بكافور فقد وعده وأخلف وعده، وكذلك فمن طبيعة النفوس الضعيفة أن تستكين للذلّ وترضى به، أما الشاعر فإنه يرفض الاستكانة للذلّ، لذا استطاع أن يرفع عن نفسه معرّة ظلم كافور.

(٢) التوى: الهلاك. يفخر الشاعر بعلوّ همته وقلبه المفعم بالاعتزاز والتصميم على تحدّي الموت؛ إنه على استعداد لمجابهة الموت ببسالة وثقة بقدرته على الانتصار.

(٣) يصدع: يشق. صم الصفا: الحجارة الصلبة. آلة القلب: العقل الرزين. يفخر الشاعر بحسن تصرّفه في نكبته، فعلى المرء أن يتمتع بقلب لا يعرف للخوف طريقاً، وعقل نيّر يكتشف حقيقة وجود الإنسان في هذه الحياة، لمواجهة الصعاب والانتصار عليها، فإذا بصمّ الصخور تتحطم تحت جبروت الإرادة والعقل المبصر.

(٤) الحياة رحلة طويلة قد تكون أو قصيرة، وعلى الإنسان أن يمشي رحلته بقدر سعة خطواته، ومن كانت خطواته واسعة يستطيع أن يحقق أمانيّه. وهنا سرّ نجاح المرء في هذا الوجود. وهذا ما حققه المتنبي.

(٥) و (٦) الكرى: النعاس. يتفجّر المتنبي كرهاً وغضباً لكافور، فقد عمد إلى تصغيره بقوله خويدم تحقيراً له، لقد نام عن مغامرة الشاعر وهروبه من قبضته، ومعلوم أن =

وَمَـاذَا بِـمِـصْـرَ مِـنَ الْـمُـضْـحِـكَـاتِ
وَلٰـكِـنَّـهُ ضَـحِـكٌ كَـالْـبُـكَـا[١]

بِـهَـا نَـبَـطِـيٌّ مِـنَ أَهْـلِ الـسَّـوَادِ
يُـدَرِّسُ أَنْـسَـابَ أَهْـلِ الْـفَـلَا[٢]

وَأَسْـوَدُ مِـشْـفَـرُهُ نِـصْـفُـهُ
يُـقَـالُ لَـهُ أَنْـتَ بَـدْرُ الـدُّجَـى[٣]

وَشِـعْـرٍ مَـدَحْـتُ بِـهِ الْـكَـرْكَـدَنَّ
بَـيْـنَ الْـقَـرِيـضِ وَبَـيْـنَ الـرُّقَـى[٤]

فَـمَـا كَـانَ ذٰلِـكَ مَـدْحـاً لَـهُ
وَلٰـكِـنَّـهُ كَـانَ هَـجْـوَ الْـوَرَى[٥]

= كافوراً كان ساهراً على حماية مصر من طمع الفاطميين في الغرب والحمدانيين في الشرق. أمَّا نومه هذا فلم يكن نعاساً، وإنما كان نوم غفلة وحمق وغباء.

(١) يتعدّى كره المتنبي إلى المصريين، فلو لم يكونوا على شاكلة ملكهم ما كانوا ليستسلموا طائعين له ولعملوا على خلعة والتخلّص من ربقته. وهذا شرّ البلية ما يحمل على الضحك منهم لغفلتهم وجهلهم.

ـ ورد بيتان لم يردا في الديوان وهما التاليان:

لـقـد كـنـت أحْـسِـبُ قـبـلَ الـخـصـ ـيِّ أَنّ الـرؤوسَ مـقـرُّ الـنُّـهـى
فـلـمـا نـظـرْتُ إلـى عَـقْـلِـهِ رأيْـتُ الـنُّـهـى كُـلَّـهـا فـي الـخُـصَـى

(٢) النبط: قوم من غير العرب كانوا ينزلون البطائح بين العراقين. السواد منطقة زراعية في العراق. الفلا، الواحدة فلاة: المفازات، يقصد بذلك بوادي العرب. يقصد الشاعر بالنبطي السوادي الوزير أبا الفضل بن خنزابة؛ فمن دواعي سخرية الأقدار أن يدرس أنساب العرب من ليس بعربي.

(٣) المشفر: شفة البعير. ينزل المتنبي بكافور إلى مستوى الحيوانية؛ فهو أسود، رمز العبودية، وهو ذو مشفر رمز الحيوانية، والغريب المعيب أنهم يشبّهونه ببدر الدجى. وهذا يسجّل على المتنبي في مديحه لكافور وتملّقه له، فقد جعله شمساً منيرة وبدراً طغى نوره على سائر ملوك عصره حتى إنه فضله على سيف الدولة.

(٤) و (٥) الكركدن: ضرب من الحيوانات البرية الإفريقية يألف مياه الأنهار والبحيرات لا ينسى الشاعر أنه مدح ذلك الحيوان بغية الحصول على ماله وخداعه فكانت قصائده =

وَقَــدْ ضَــلَّ قَــوْمٌ بِــأَصْــنَــامِــهِــمْ
فَــأَمَّــا بِــزِقٍّ رِيَــاحٍ فَــلَا[١]
وَمَــنْ جَــهِــلَــتْ نَــفْــسُــهُ قَــدْرَهُ
رَأَى غَــيْــرُهُ مِــنْــهُ مَــا لا يَــرَى[٢]

= بمثابة الرُّقى لكي يطمئنّ له كافور. وهو ينطق عن حقيقة شعوره، فهو لم يبغِ مدحه المغلَّف بسخرية حادَّة لم تفت على كافور، وإن جعله يعتقد، فقد كان الخداعَ متبادلاً بين الاثنين.

(١) الزقّ: السقاء. يسخر الشاعر من المصريين، فقد اتخذوا ذلك الزقّ الذي يصدر عن ريح نتن تشمئزّ منه الأنوف وتنفر منه الأذواق.
ـ ورد بيت لم يرد في الديوان، وهو التالي:
وتــلــك صــمــوت وذا نــاطــقٌ إذا حــرّكُــوهُ فَــسَــا أو هَــدَى

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٤، ينطق الشاعر بحكمة مفادها أن المرء الذي لا يعرف نفسه حقّ المعرفة، ويداخله الغرور والإعجاب بما يرى أن لديه من حميد الخصال ويعمى عن حقيقة نفسه، يعرّض نفسه لسخرية الناس لمعرفتهم بنواقصه وتخلّفه لمراقبتهم لكل ما يصدر عنه بعيون مجهرية مكَبّرة لعيوبه.